**مقاومة الأمير عبد القادر المحاضرة الخامسة**

تاريخ الجزائر ملئ بالرجال الأوفياء الذين صادقوا ما عاهدوا الله عليه وحذوا حذو المجاهدين الأخيار و الشهداء الأبرار الذين أفنوا اعمارهم في محاربة الاستعمار الغاشم و هذا عزيزي الطالب الأمير عبد القادر خير دليل على ذلك فقد قضي ما يقارب 17 سنة مجاهدا في سبيل الله محاربا الكفار و المنافقين المعتدين علي الأرض الطاهرة .

فبعدما وقع عليه الاختيار أن يكون قدر الجزائر في سلطانها لم يهدأ أبدا في مواجهة الغزاة حتي في أوقات السلم التي جنح إليها العدو كان يجهز جيشه و يعده لأنه كان علي يقين بأن مغتصب الأرض لا يكون له عهدا أبدا.

و لقد ذكرنا في المحاضرة السابقة كيف تعامل الأمير مع المتآمرين ضده و القاعدين عن الجهاد و كيف أخمد ثوراتهم المضادة و كما أن الأمير ذهب أكثر من ذلك في المعاملات الإقتصادية مع العدو حتي يحاصره ، لذلك وضع حدا صارما لمن يغذي الإستعمار أو يعاون حملته. و حتي يتوضح لنا مما سبق أن الأمير عبد القادر كان رجلا سياسيا و عسكريا بامتياز وإن طلب الأمان في مرحلة ما من جهاده ضد العدو المحتل و هذا كان لأسباب جما سنتطرق إليها فيما بعد.

***كفاح الأمير عبد القادر :***

لما احتلت فرنسا مدينة وهران بقيادة الجنرال **بوايه** ضرب عليها الامير حصارا اقتصاديا مما دفع قوات المحتل باستبداله بالجنرال **ديميشال** ليفك الحصار عن المدينة .

تجهز الجنرال بقواته النظامية في معركة **التينة** تمكن فيها العدو علي جيش الأمير لأن القوة لم تكن متكافئة بسبب قصد المدفعية استشهد فيها ستون جزائريا و جرح ثمانون من قوات الأمير[[1]](#footnote-1).

في2 جوان 1833م استولي الأمير علي ثماني مدافع فرنسية فطلب ديميشال من أحد الزعماء التوسط له لدي الأمير حتي بعيد له المدافع و هو مصطفي بن إسماعيل لكن دون جدوي بعد حوالي اسبوع خرجت قوات الجنرال تتألف من ألفي مقاتل من المشاة و أربعمائة فارس و سنة مدفعيات حتي يعاقب مصطفي لعدم توسطه و محاربة الامير[[2]](#footnote-2).

دارت رحي هذه المعركة في **عين البريدية** و تواصلت حتي منتصف الليل لكن في صباح اليوم التالي انسحبت قوات الأمير إلي الوراء لتنتهي المعركة بالنتائج التالية:

* لم يستطع ديميشال استعادة المدافع ولا الأسري الذين أخذهم الأمير
* تمكن الأمير من استعادة ارزيو وانسحاب قوات ديميشال إلي المرسي الكبير.
* استشهاد ثلاث فرسان للأمير وهم : قدور بن طوبال . قاضي البرجية .قاضي الدوائر[[3]](#footnote-3).

**معاهدة الجنرال ديميشال 26 فيفـري 1834:**

" إن القائد العام للقوات الفرنسية في مدينة وهران وأمير المؤمنين سيدي الحاج عبد القادر بن محي الدين، قررا العمل بالشروط التالية([[4]](#footnote-4)):

**المادة الأولى**: إن الحرب بين الفرنسيين والعرب سنتوقف منذ اليوم، وإن القائد العام للقوات الفرنسية والأمير عبد القادر لن يدخر وسعا في الحفاظ على ذلك الاتحاد والصداقة التي يجب أن تكون بين شعبين حكم عليهما القدر إن يعيشا تحت نفس السلطة. ولهذا الغرض سيقيم ممثلو الأمير في وهران ومستغانم و أرزيو. ولمنع الصدام بين الفرنسيين والعرب سيقيم الضباط الفرنسيون في مدينة معسكر.

**المادة الثانية:** أن دين وعادات العرب ستكون محل احترام

**المادة الثالثة:** كل المساجين سيطلق سراحهم حالا من الجانبين.

**المادة الرابعة:** حرية التجارة ستكون كاملة وشاملة.

**المادة الخامسة:** إن العسكريين الفرنسيين الفارين سيعيدهم العرب، ونفس الموقف سيتخذ إزاء كل العرب المجرمين الذين يفرون من قبائلهم إلى الفرنسيين تفاديا للعقاب. فهؤلاء سيقبض عليهم في الحال ويسلمون إلى ممثلي الأمير في المدن البحرية الثلاث التي يحتلها الفرنسيون.

**المادة السادسة:** كل أوروبي سيعطي، إذا رغب في السفر داخل البلاد، جواز سفر موقعا عليه من ممثلي الأمير ومصادقا عليه من القائد العام، حتى يجد المساعدة والحماية في كامل الإقليم.

إن هذه الشروط، التي كتبت في أعمدة متوازية بالعربية والفرنسية، قد وقعها وختمها الطرفان، ونلاحظ أن شيئا لم يذكر في هذه المعاهدة عن احتكار التجارة. غير أن عبد القادر كانت له وثيقة وكان راضيا، أما ديميشال، الذي كان فخورا بما اعتبره انتصارا دبلوماسيا فقد أسرع بإرسال بشائر السلام المباركة إلى الحكومة الفرنسية، وسمح لنفسه أن يعبر عن انفعاله بالطريقة التالية:

" إنني أعلن لكم استسلام إقليم وهران الذي يعتبر أكبر جزء في ولاية الجزائر وأكثرها محاربة، الفضل في هذا الحادث الكبير يعود إلى الميزات التي امتازت بها القوات التي أقودها" .

"أما عبد القادر فمن حقه أن يهنأ على أكاليل الغار، فقد أرغم عدوه على طلب السلام، ووضع شروطه الخاصة، و لم يدفع أية جزية، ولم توضع أية حدود على منطقته وقد اعترف له الجنرال الفرنسي بالاستقلال بعرضه عليه تعيين واستقبال القناصل. وكان على الفرنسيين أن يشحنوا من ميناء واحد فقط، وان يخضعوا لضريبته الجمركية.

"وبمقتضى الاحتكار الذي نص عليه بعباراته الخاصة، أصدر عبد القادر أوامره بمنع العرب من بيع القمح والشعير أو الإنتاج الفلاحي، مهما كن نوعه إلى المسيحيين سواء كانوا من أهل البلاد أو أجانب .وقد أعلن أن ممثليه هم الوحيدون المسموح لهم بالشراء والبيع، وهم فقط الذين يحددون الأسعار في الأسواق.

وقد رفع التجار الفرنسيين في أرزيو شكواهم الصارخة إلى ديميشال نتيجة هذه القيود. أما عبد القادر فقد احتج بنص وثيقته، بينما كان ديميشال يفضل تجاهلها و يلتزم بالمعاهدة المشتركة التي نصت على حرية التجارة، وقد وافق عبد القادر على هذا الامتحان، ولكنه قال إنه بالرغم من أن الأسواق كانت حرة فان تمويلها من حقه هو فقط".

جاء التبيان في تفسير المعاهدة حول النقاط التالية([[5]](#footnote-5)).

**- القناصل و الممثلون:**

كانت كلمة "قناصل" تعني عند عبد القادر وكلاء دولته المستقلة لدى الجانب الفرنسي، و يتكلمون باسمه لدى حكومة باريس. وقد انتدب الأمير لهذه المهمة ثلاثة قناصل: الآغا خليفة بن محمود لارزيو، محمد بن يخو لوهران و ابن دران لمدينة الجزائر. أما عبارة " ممثلون" فكانت تعني عند الفرنسيين عكس ذلك تماما. وقد عين حاكم مقاطعة وهران المقدم عبد الله داسبون قنصلا في معسكر لحل المشاكل الطارئة مع الأمير.

**- التجارة الداخلية و الخارجية:**

حرص عبد القادر على احتكام هذه التجارة و عمل على استقلاله التام في هذا المجال. فعبارة " سوق" في النص العربي تعني حرية العرب المطلقة في البيع و الشراء في الأسواق الثلاث: وهران، أرزيو، و مستغانم، و تصدير ما يرونه ذا فائدة لخزينة الدولة. أما ديمشال فقد فهم ذلك، التعامل التجاري على النطاق الدولي ، كما أنه حصر كلمة سوق بمرفأ أرزيو فقط. ا

**المادة 4.**

**- المعاملة بالمثل و المساواة:**

كان موقف الأمير واضحا حول قضية تبادل الفارين، مما يؤكد رفضه الإعتراف بالسيادة الفرنسية. أما قضية جواز السفر الذي يحمله الأوروبي في المنطقة الغربية، فإن النص الفرنسي يعطي صلاحية اصدراه للسلطات الفرنسية و يمنح قناصل الأمير حق التأشير عليه فقط. أما النص العربي، فيجعل منح الجواز بالتساوي بين الطرفين تأكيدا لسيادة الأمير. المواد 3،5،6.

**- مفهوم السيادة لدى الأمير و الحكام الفرنسيين[[6]](#footnote-6):**

يظهر من هذه المعاهدة أن فرنسا اعترفت باستقلال الأمير ضمن الحدود التي عينها الإتفاق مقابل اعترافه بالسيادة الفرنسية على بعض مناطق الجزائر. وقصد الفرنسيون من عبارة " بين شعبين حكم الله عليهما أن يعيشا تحت نفس السلطة" الحصول من عبد القادر على الإعتراف بالسيادة الفرنسية المطلقة، بينما هدف الأمير بسط سلطة الإسلام على كافة بقاع الجزائر و التي تتمثل بشخصه.

تعتبر معاهدة ديمشال أول انتصار دبلوماسي للأمير إذ اعترفت به كأمير للمؤمنين. و هو تعبير لا يستعمله إلا الخلفاء ذوو السلطة الروحية و السياسية. و خلاصة القول، أن هذه المعاهدة نصت على سيادة الأمير و مكانته الدولية و أعتطه و قتا لتنظيم امارته داخليا و قوة للقضاء على منافسيه المتمردين.

**- المعاهدة السرية:**

كتبت هذه المعاهدة باللغة العربية فقط و عرفت بوسيلتين

- نسخة طبق الأصل سلمها ابن دران، وكيل عبد القادر في العاصمة الجزائر للحاكم العام، الجنرال دارلون، الذي أفاد حكومته عنها بتاريخ 26 ديسمبر 1834([[7]](#footnote-7)).

و كان الجنرال ديمتشال قد أخفى هذه المعاهدة على حكومته بباريس، في حين أبلغ الأمير بموافقتها. وقد أعطيت للأمير الحرية الكاملة لشراء الأسلحة من غير الرجوع إلى فرنسا (المادة1). كما أصبحت التجارة لا تتم إلا بموافقة الأمير و لا تنفذ إلا بواسطة قناصله.

**نهاية الامير عبد القادر**

يذكر تشرشل علي لسان الاميراسنشارته لقومه حول وضع السلاح و الاستسلام قائلا: **إنني دائما كنت أعتبر ذلك القسم ملزما لي نحوكم كما هو ملزم لكم نحوي إن هذا الشعور وحده هو الذي جعلني أثابر على الجهاد إلى هذه الساعة حتى ولو لم يكن هناك أمل، فقد كنت عزمت على ألا يكون في استطاعة أي مسلم، مهما كانت صفته أو درجته، أن يتهمني بإلزامكم بشيء لم أكن أنا شخصيا مستعدا أن أقوم به، أو يقول بأنني لم أفعل كل ما في وسعي لنصر كلمة الله، فإذا كنتم لا تعتقدون أنه مازال بوسعي أن أقوم الآن بأي شيء، فاخبروني وإن كنتم لا تعتقدون ذلك فإني أسألكم أن تعفوني من القسم الذي التزمت به التزمت به إليكم عقليا عندما طلبت رسميا قسمكم.[[8]](#footnote-8)**

" **إننا جميعا نشهد أمام الله أنكم فعلتم كل ما في وسعها لإعلام كلمته، و يوم القيامة سيجازيكم الله بخيره بعدله.**

**" وإذا كان ذلك هو رأيكم، فإن أمامنا ثلاثة احتمالات لا غير: إما العودة إلى الدائرة حيث نكون مستعدين لمواجهة أية عقبة، و إما محاولة إيجاد طريق لأنفسنا إلى الصحراء، و في هذه الحالة لا تستطيع النساء و الأطفال و الجرحى أن يتبعونا و سيسقطون لا محالة في أيدي العدو، و إما الاستسلام.**

فأجابوه:"ليهلك النساء و الأطفال، أهلنا و أهلك، مادامت أنت سليما و قادرا على استئناف الجهاد في سبيل الله، إنك قائدنا و سلطاننا، فحارب أو استسلم، كما تشاء، إننا سائرون ورائك إلى حيث تقودنا[[9]](#footnote-9).

و توقف الأمير عبد القادر بعض اللحظات ثم استأنف كلمه بتأثر عميق: " **صدقوني، إن المقاومة قد انتهت، فلنتعرف بذلك، و الله على أننا حاربنا طالما كان ذلك في استطاعتنا، فإذا لم ينصرنا فلأنه حكم أن تكون هذه الأرض للمسيحيين، وبقائي في البلاد أو عدم بقائي فيها سوف لا يغير من الأمر شيئا، وماذا أستطيع أن أفعل أكثر مما فعلت من أجل القضية التي دافعنا عنها طويلا؟**

**هل في استطاعتي أن استأنف الحرب؟ إنني سأهزم و سيتعرض العرب إلى مزيد من الآلام.**

و بالإضافة إلى ذلك فان القبائل قد أصبحت تعبة من الحرب، إنها لم تعد تطيعني، يجب أن نستسلم، و المشكل هو هل نسلم أنفسنا إلى أيدي المسيحيين أو إلى أيدي مولاي عبد الرحمان، و لكم أن تحكموا في هذا الأمر بما ترون أنه الأفضل، أما أنا فإنني أفضل ألف مرة ان أثق فيمن حاربني على الوثوق فيمن خانني، إن وضعنا حرج، و ذلك فان مطالبنا يجب أن تكون متواضعة و إنني سأكتفي بطلب الأمان لنفسي و لعائلتي و لأولئك الذين يريدون أن يتبعوني إلى بلاد إسلامية أخرى.[[10]](#footnote-10) "

وفي اليوم الخامس والعشرين من ديسمبر سنة 1847 ركب عبد القادر وعائلته وأتباعه السفينة أسمو دس Asmodeus التي توجهت بهم إلى طولون وكانت السلطات الفرنسية قد باعت كل ممتلكاته الشخصية، حقائبه و خيامه و حياده و بغاله و إبله، بمبلغ 6000 فرنك، ولكن حتى هذا المبلغ الطفيف لم يتصدق به عليه إلا مقسطا، بل إن تحقيقا قد أجرى للبحث في الطريقة التي صرف بها كل قسط، وصعد معه الجنرال لاموريير إلى السفينة و منحه بسخاء هدية من 4000 فرنك، و في مقابل ذلك أعطاه عبد القادر سيفه.

و عمت أنباء استسلام عبد القادر فرنسا في حماس طاغ من الفرح و الانتصار، إن الجزائر يمكنها أن تسمى الآن بحق " مستعمرة فرنسية" وقد نوهت جريدة المونيتور Moniteurفي عدد الثالث من يناير سنة 1848 بالخبر السار هكذا:" إن إخضاع عبد القادر هو حادث في غاية الأهمية لفرنسا، إنه يؤكد طمأنينة احتلالنا، إنه يسمح لنا أن تخفض من عدد الرجال والنقود التي كنا نرسلها إلى إفريقيا منذ سنوات طويلة. وهو يساهم، من هذه الحقيقة وحدها، في تدعيم قوة فرنسا في أوربا، ففرنسا تستطيع اليوم، إذا دعت الضرورة، أن تنقل المائة ألف رجل التي تستخدمها للاحتفاظ بالأهالي المقهورين تحت نيرها إلى مناطق أخرى" [[11]](#footnote-11).

1. فركوس صالح . نفس المرجع .ص 54 [↑](#footnote-ref-1)
2. أديب حرب . نفس المرجع . ص 103 [↑](#footnote-ref-2)
3. فركوس صالح . المرجع السابق . ص 54 [↑](#footnote-ref-3)
4. - تشرشل: ص 112-114. [↑](#footnote-ref-4)
5. - أديب حرب: ص 125-127 [↑](#footnote-ref-5)
6. ـ تشرشل: ص 135. [↑](#footnote-ref-6)
7. - أديب حرب ص 127-129. [↑](#footnote-ref-7)
8. ـ تشرشل ، 142 [↑](#footnote-ref-8)
9. ـ تشرشل ،143 [↑](#footnote-ref-9)
10. ـ تشرشل ،ص143 [↑](#footnote-ref-10)
11. ـ تشرشل ،ص148 [↑](#footnote-ref-11)